

الجهل بالله تعالى

وأثره في السلوك العملي للمتدين

جمال الشامي

١٤٣٨هـ

النسخة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م



المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.
وبعد:

من يعرف الإسلام ودستوره القرآن حق معرفته يقطع بتحقيق غربته التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً))^(١)، وانكفائه كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الاناء بما فيه))^(٢)، بل لم يعد معروفاً منه إلا اسمه، يقرأون القرآن ولا يعملون به، يأمرهم الله بالعدل والاحسان فيعملوا بالظلم والهوان، وأمرهم بالصدق فعملوا

(١) الأملالي الإثنيية ص ٦٠١، صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٧ ص ١١٠.

بالكذب، نهاهم عن القتل فاسرفوا به، في كل أمر يأتيهم من الله يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]:

يا ناعي الإسلام قم فانه قد مات عرف و أتى منكر

فكانهم ﴿صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]،
على طريق من سبقهم يسلكون كما أخبر النبي صلى الله عليه
وآله وسلم: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))^(١)، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ
عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]،
﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا
بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فلما جهلوا الله سبحانه وتعالى لم يعبدوه
مخلصين ولم يجعلوا له الدين؛ ((مَا وَحَدَهُ مَنْ كَيْفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ
أَصَابَ مَنْ مَثَلُهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ

(١) صحيح البخاري ج ٩ ص ١٠٣.

إِلَيْهِ وَتَوَّهَّهُ))^(١)، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، لم يقص الله سبحانه أخبار الأمم السابقة عبثاً ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ولم يحذر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من السلوك في طريقهم لعباً بل للتحذير والانذار والاعتبار ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

لقد أصبح الإسلام اليوم عنواناً للإرهاب والتخلف والجهل حكماً على اتباعه وأصبحت ديار الإسلام ساحة للحروب وتجارب للأسلحة، ولم يهان دين كما يهان الإسلام اليوم من قبل شيوخ السلاطين واتباعهم، ولخطورة المسألة ودفاعاً عن الإسلام الغريب وجب البحث عن الأسباب التي

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٣ ص ٦٩.

غربت الإسلام وابدلت عنه إسلاماً موازياً له ظناً أنه الإسلام
الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد التأمل
والنظر ظهر أن الجهل بالله تعالى توحيداً وعدلاً ووعيداً سبب
ذلك وللوقوف على تفصيله فيما يأتي، أرجو من الله التوفيق
للصواب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على
محمد وآله الطاهرين.

المبحث الأول

تعريف الجهل وأقسامه

المطلب الأول: تعريف الجهل:

الجهل في اللغة: نقيض العلم. يقال جهلت الشيء جهلاً وجهالة بخلاف علمته، وجهل على غيره سفه أو خطأ. وجهل الحق أضاعه، فهو جاهل وجهل. وجهلته - بالثقل - نسبته إلى الجهل^(١).

والجهل في الاصطلاح: «اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه»^(٢).

المطلب الثاني: أقسام الجهل:

وينقسم الجهل إلى قسمين: بسيط، ومركب.

(١) المصباح المنير ج ١ ص ١١٣.

(٢) التعريفات ص ٨٠.

الأول: الجهل البسيط وهو نوعان: عام وخاص.

١- الجهل البسيط العام: «عدم العلم بشيء من المعلومات».

٢- الجهل البسيط الخاص: «عدم العلم ببعض المعلومات»^(١).

الثاني: الجهل المركب: «اعتقاد جازم غير مطابق للواقع»^(٢)، ويسمى الاعتقاد الفاسد وهو موضوع البحث.

[قبح الجهل المركب]:

ووجه قبحه أنه جهلاً مضاعف «وعمى مُتَبَرِّاً متلفاً، لا يرجى إلا بالله لأهلها منها سلامة، ولا يزدادان على صاحبهما طول الدهر إلا مداومة، وإنما قيل في الجهل إنه مُضعف، لأن صاحبه لا يعرف ولا يعرف أنه لا يعرف، فجعله هذا جهلان، وهلكته بجهله هلكتان، بل لو قيل إن جهله هذا جهل مضعف

(١) البحر المحيط في التفسير ص ٤٠٥.

(٢) التعريفات ص ٨٠.

أضعاف ثلاثة متراكبة، لكانت مقالته من قال ذلك في جهله صادقة غير مكذّبة، لأنه جَهِلَ فكانت تلك منه جهلاً، ثُمَّ جهل أنه جاهل فكانت تلك لجهله مثلاً، ثُمَّ رأى أن جهليه جميعاً علماً، فكان ذلك منه جهلاً ثالثاً وظلماً.

وإنما قيل إن عماء عمى متبرّ متلف، ليس له إلا بالله عنه زوال ولا تَكْشُف، لأن صاحبه لا يَأْلُم له ولا يجده، فهو يزيده دائباً ويمده، إذ لا يجد له في نفسه ألماً، ولا يَعُدُّ عماء فيه عمى، فلذلك ما ازداد داؤه، وقَلَّ من عماء شفاؤه، ولو وجدته فلمسه، أو أَلَمَّ بآلِهِ فحسه، لطلب له الشفاء، ولما كان متبرراً متلفاً، ولو طلب - ويله - طب ما به من دائه»^(١).

(١) مجموع الإمام القاسم الرسي ج ١ ص ٢٥٢.

المبحث الثاني الجهل بالله وأثره على السلوك العملي

المطلب الأول : أسباب الجهل بالله :

هناك جملة من الأسباب أهمها تأثيراً في الإخلال بمعرفة الله تعالى ما يلي :

- تعطيل العقل في معرفة الله تعالى، والتي هي عقلية، ولا يمكن معرفة الله تعالى حق معرفته إلا بالعقل ولا تقديره حق قدره إلا به.

- البعد عن كتاب الله تعالى (القرآن)، ولا يمكن البعد عنه في معرفة الله تعالى إلا بالأخذ بما يخالف قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] من الأخبار.

- التقليد في معرفة الله تعالى، لمن سبقنا من الأديان المحرفة أو لعلماء السوء وأهل الضلال وسلاطين الجور، والتعلل بـ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

مُهِتَدُونَ ﴿[الزخرف: ٢٢]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ
آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

المطلب الثاني: الجهل بالتوحيد وتأثيره:

التوحيد هو المعرفة الكلية لله تعالى، وجملة التوحيد: هو
الإيمان بأن الله تعالى هو الخالق، وأنه واحد، وليس كمثله
شيء، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:
١٩]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٤)
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

هذا هو التوحيد الواجب والذي جاء به النبي صلى الله
عليه وآله وسلم والذي علمه من أعلم بالإسلام ودان به
حقيقة حيث أنه لا يتصور العقل وجود خلق من غير خالق،
وكذا لا يتصور تعدد الإله، وقطعاً لا يمكن أن يكون الصانع

مشابه للمصنوع، ولذلك التصور عن الخالق تعالى أثر في السلوك العملي من حيث عدم الإخلال بشكره والإلتفاف في أداء الطاعات واجتناب المحرمات.

وفي الانحراف عن التصور السابق أثر سيء في السلوك كما لو نفى الخالق، أو اعتقد بمؤثرات معه غيره، وبأنه يشبه خلقه، وتفصيل ذلك وأثره كما يلي:

أثر القول بنفي الخالق:

وإن كان هذا لا علاقة له بالمتدين وسلوكه إلا أن له علاقة بسلوك من يراه، فمن ينفي وجود الخالق فمن المؤكد لا يؤمن بوجود قانون ينظم السلوك ولا حساب ولا عقاب أخروي، وهذا يجعل من يعتقد ذلك لا يقف عند أي حد ينظم سلوكه فيرتكب كل ما هو قبيح دون مانع.

أثر الاعتقاد بتأثير غير الله وتعظيمه:

التأثير هنا قدرة غير الله على الخلق أو الرزق أو الإشفاء أو الشفاعة في إسقاط العقوبة، فمن جعل للأنبياء أو الأئمة أو المشائخ أو الحكام نوع من التأثير فلا شك أن له أثر في عدم الالتزام بأوامر الله ونواهيه؛ لأن هناك من هو مماثل له في التأثير أو من له قدرة على تخليصه من عقوبته نتيجة معاصيه، قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] (١).

وأيضاً تعظيم ذكر غير الله والانشغال به ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، لذلك تأثير في تجاهل أوامر الله ونواهيه بحيث يصبح كلام الله (القرآن) في درجة دونه ولذلك قدمت الأخبار والآراء عليه وأصبحت حاکمة عليه ومهيمنة

(١) قال الإمام الناصر أحمد بن الهادي: «فوالله ما صلوا للأخبار ولا للرهبان، ولكنهم كانوا يفعلون ما أمروهم به فلذلك سهاهم أرباباً لهم» النجاة ص ٣٨.

حتى وصل البعض إلى القول بأن «السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضيا على السنة»^(١)، ومن النماذج على ذلك ما يلي:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، فيأتي من يقول لهم اقتلوا النفس بغير الحق! ويصبح قوله معمول بدل قول الله تعالى.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فيأتي من يقول لهم اقتلوا انفسكم لأجل الحاكم أو الشيخ! فيأخذون بقوله ويتركون قول الله تعالى.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، فيأتي من يقول لهم اركنوا إلى الظالمين بل وكونوا جنوداً لهم! فيأخذوا به ويتركون كلام الله.

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ١٤.

ويقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا
الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢]، فيأتي من يقول لهم بل
أشد الناس عداوة المؤمنين الشيعة! ويتم الأخذ بهذا القول
ويترك قول الله تعالى.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ
النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ويأتي من يقول لهم بل هناك خروج من
النار! فيأخذون بهذا القول ويتركون قول الله.

وقد وصل البعض إلى تفسير ذكر (الله) تعالى في كتابه
بأئمتهم!!!^(١) في محاولة لإبعاد الله تعالى عن الوجود وإبداله
بمن خلق للأسف وبالتالي لا قيمة لكلام الله من أمر ونهي لأن
البديل المفترض والمسمى (الله) هو المعبود حقاً والواجب
اتباعاً، وقليل من يسلم من اشراك غير الله في العبادة والتأثير

(١) عن أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، قال: أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد. بحار
الأنوار ج ٢٣ ص ٣٦١، وعن أبي الحسن في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، قال: هم الأوصياء. الكافي ج ١ ص ٤٢٥.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

أثر تشبيه الخالق بصفات المخلوق:

عندما يوصف الخالق بصفات مماثلة للمخلوق فحتماً التعامل معه تعامل مع مخلوق، فمن يصور الله بأن له «وجه»^(١)، ويدان^(٢)، وعينان^(٣)، وقلب^(٤)، ولسان^(٥)، وساق^(٦)، وصدر^(٧)، ونواجز^(٨)، وأصابع^(٩)، بل هو «على صورة

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ص ٢٨٣، بحار الأنوار ج ٩١ ص ١٤٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٥ ص ٩٧، تفسير العياشي ج ١ ص ٢١٦.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج ٦ ص ٦٥٥.

(٤) بحار الأنوار ج ٢٤ ص ١٩٨.

(٥) نور البراهين ص ٤١٤.

(٦) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج ٤ ص ٢ ص ٧١٢.

(٧) الأسماء والصفات للبيهقي ج ٢ ص ١٧٨.

(٨) رؤية الله للدارقطني ص ١٦٣، إبطال التأويلات لأبن الفراء ص ٢١٤،

الإيمان لأبن منده ج ٢ ص ٨٢٣، تفسير الطبري ج ١٥ ص ٦٠٤.

آدم»^(٢) وأنه يصعد وينزل^(٣)، ويجلس^(٤)، ويضحك^(٥)،
ويعجب^(٦) إلخ، ويتحول من صورة لأخرى^(٧).

هذا التصور قطعاً لإنسان مخلوق^(٨) ولا يمكن أن يكون
خالق الإنسان إنسان، وعليه يبنى كيفية التعامل معه ومع
أوامره ونواهيه وقد صور بهذه الصورة من كان قبلنا وتعاملوا
معه على هذا التصور، فبنو إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام:

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٢٦، الشريعة للأجري ج ٣ ص ١١٦٤، مسند
أحمد بن حنبل ج ٧ ص ٣٧٨.

(٢) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ص ١٠٨.

(٣) النزول للدارقطني ج ١ ص ١٧٣، الأصول الستة عشر ص ٥٤.

(٤) جامع البيان الطبري ج ٥ ص ٤٠٠، ومجموع فتاوى ابن تيمية
ج ١٦ ص ٤٣٥، مدينة المعاجز ج ٣ ص ٤٦٤.

(٥) العرش للذهبي ج ٢ ص ٣٦٢.

(٦) تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد للعثيمين ص ٥٩.

(٧) صحيح البخاري ج ٨ ص ١١٧ ر ٦٥٧٣، صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٣ ر ١٨٢،
مسند ابن حنبل ج ١٣ ص ١٤٤.

(٨) بل قد روي أنه كذلك على «صورة شاب أمرد، دونه ستر من لؤلؤ قدميه»
الأسماء والصفات للبيهقي ج ٢ ص ٣٦٣.

﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ولم يتجرأوا على ما سبق إلا عندما جهلوا الله ووصفوه بصفاتهم ومن كان على تلك الصفات فحتماً يرى، وتقع عليه المخادعة والسهو وجميع صفات النقص البشرية، ولذا نجد المسلمين اليوم وقبل ومن قبلهم يعتقدون بأنه يمكنهم مخادعة الله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، فيرتكبون أبشع الجرائم - وهم يعلمون أنها جرائم في باطنهم - ثم يسوقونها على أنها واجبات شرعية وانها لنصرة الإسلام والحق كما يفعلون اليوم في كثير من البلدان كاليمن نموذجاً، فيقتلون الشعب اليمني ظلماً وعدواناً ويطبقون عليه الحصار ثم يزعمون أنهم سيخادعون الله والمؤمنين فينشرون أنهم يدافعون عن اليمن وعن الإسلام والصحابة والسنة إلخ الأكاذيب، ويتلقاها اتباعهم ممن يجهلون الله ويعتقدون بعظمة غيره عليه، وكذلك تعاملهم مع

الله على أنه إنسان (شاب أمرد)^(١) كما جاءت به النصوص عندهم ممكن خداعه والتفلت من عقابه إن وجب عليهم، وعند كل أمر ونهي يأتيهم من الله ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، وهذا لا يكون إلا عند التعامل مع بشر مماثل لا مع الخالق تعالى، وكذلك الاعتقاد بأنه يجهل أو ما يسمى بـ(البداء) وهو من صفات المخلوقين فيؤدي ذلك إلى سوء الظن بالله تعالى، وإن أخباره عما يكون يجوز أن لا يكون فيكون ذلك كذباً^(٢)، وهذا يجعل لا قيمة لأخباره تعالى في سلوك الأفراد.

(١) قال ابن صدقة الحافظ: من لم يؤمن بحديث عكرمة - ((رأيت ربي في صورة شاب أمرد له وفرة جعد قطط في روضة خضراء)) - فهو زنديق!، وقال أبا زرعة الرازي: فهو معتزلي، وقال أحمد بن حنبل: فمن شك في شيء أو في شيء منه فهو جهمي لا تقبل شهادته ولا يسلم عليه ولا يعاد في مرضه!، وقال أسود بن سالم: هذه الأحاديث التي جاءت في الرؤية نحلف عليها بالطلاق والعناق أنها حق!.

بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ج ٧ ص ٢٢٤-٢٢٨.

(٢) العقد الثمين في تبين أحكام الأئمة الهادين ص ١٨٤.

المطلب الثالث: الجهل بالعدل وتأثيره:

العدل هو تنزيه الله تعالى عن فعل القبيح وأن أفعاله كلها حسنة، وبناء على ذلك فالله تعالى لا يقضي إلا بالحق، ولا يريد الظلم، ولا يرضى بالكفر، ولا يحب الفساد، ولا يثيب أحداً إلا بعمله ولا يعاقب أحداً إلا بذنبه، وأفعال العباد القبيحة منها والحسنة ليست إلا منهم؛ لما سبق ويعلم ذلك ضرورة بالعقل والكتاب، أما العقل فمعلوم أن أفعالهم تحصل بحسب قصودهم ودواعيهم، وتتفي بحسب كراحتهم وصوارفهم، وأما الكتاب: فقوله تعالى في غير آية: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، ﴿تَفْعَلُونَ﴾، ﴿تَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

والإخلال بهذا الأصل له أثر جسيم في السلوك العملي من حيث الالتزام بأوامر الله ونواهيه والإخلال بها؛ لتعلقها بأفعال الله تعالى وبناء أفعال العباد عليها، فمن جهل أفعال الله أخل بأفعاله، وأبرز الجهل بمسائل العدل المتعلقة بالسلوك العملي:

القول بالجبر والقدر، والقول الثواب والعقاب ليسا بجزء على الأعمال، والقول بأن الله تعالى يريد الظلم ويرضى بالكفر ويجب الفساد، وتفصيل ذلك كما يلي:

أثر القول بالجبر والقدر:

المراد بالجبر هو القول بأن العبد مجبور على أفعاله لا إرادة له فيها، وأول من قال به إبليس قال تعالى حاكياً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وتلقفها منه أتباعه إلى اليوم وإلى يوم الدين، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبْدْنَا هُمْ مَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

فالإنسان عند ذلك عبارة عن شجرة يحركه الله كيفما يشاء
كما يتصورون، لا إرادة لهم فيما يفعلون وهذه وسيلة شيطانية
للتهرب من المسؤولية تبيح ارتكاب كل قبيح وإضافته إلى الله
تعالى!

فلما رأى عبيد الله بن زياد علي بن الحسين قال له: «ما
اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين، قال: أو لم يقتل الله علي بن
الحسين! فسكت، فقال له ابن زياد: ما لك لا تتكلم! قال: قد
كان لي أخ يقال له أيضاً علي، فقتله الناس، قال: إن الله قد
قتله»^(١)، وهكذا يحملون الله تعالى جرائمهم، ويفرضون
انفسهم على الناس بدعوى فرض الله ذلك، وقد سئل المأمون
العباسي النضر بن شميل: ما الجبر؟ فقال: دين يوافق الملوك
يصيبون به من دنياهم، وينقصون به من دينهم^(٢).

ولله القائل:

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٥٨.

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧٦.

المجبرون يجادلون بباطل وبغير ما يجدون في الفرقان
الواصفون إلههم بتعنت لعباده كذبوا على المنان
كلُّ مقاتله الإله يضلني ويريد لي ما كان عنه نهاني
إن كان ذا فتعوذوا من ربكم ودعوا تعوذكم من الشيطان

وقال الفيلسوف جان جاك روسو: «إن صح أن ميولنا
الأولى تظل مسيطرة للعدل والحق، وأن الرذائل تنشأ منا، ما
بالنا نتدمر ونقول إنها مسيطرة علينا؟ لماذا نلوم الرب على
الشروع التي تولدها أفعالنا وعلى أعداء لنا نمدهم نحن
بالسلاح ضدنا؟ آه، لنكف عن فساد الإنسان وعندها سيكون
على الدوام طيباً بلا تكلف، سعيداً بلا ندم. من يدعي أنه
ارتكب الجريمة مكرهاً كذاب بقدر ما هو شرير»^(١).

وما دخل الجبر دين إلا افرغه من محتواه وجعله وسيلة
للإجرام والفساد والتسلط، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه

(١) دين الفطرة ص ٨٣.

وآله وسلم أنه قال: ((ما هلكت أمة حتى يكون الجبر قولهم))^(١)، وروى أن رجلاً من خثعم قام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: متى يرحم الله عبده؟ قال: ((مالم يعملوا بالمعاصي، ثم يزعمون أنها من الله تعالى، فإذا فعلوا ذلك انتزعت منهم الرحمة انتزاعاً))^(٢)، ومن يشاهد حال المسلمين اليوم لا يجد أثراً للرحمة بينهم.

وأما القدر: فهو من لوازم القول بالجبر حيث أن من قال بأن الله أجبره على فعله وهو متدين فالواجب حينئذ هو الرضاء بقضائه وقدره في الفعل الصادر عن العبد، وقد تواترت الأخبار النبوية بدم القدرية ووصفهم بالمجوس وذلك لقولهم بأن من أجبره الله على الإيمان لا يستطيع الخروج منه إلى الكفر، ومن أجبره الله على الكفر لا يستطيع الخروج منه إلى الإيمان، فكل قبيح يرتكبه الإنسان فلا يلوم نفسه بل يجب أن

(١) حقائق المعرفة ص ٢١٣.

(٢) حقائق المعرفة ص ٢١٢.

يرضى بقضاء الله وقدره عليه وكذلك غيره إذا تسبب بقتله أو سرقة، فولاية الحاكم وظلمه وإجرامه لا يجوز عند ذلك رفضه والخروج عليه؛ لأن ذلك رفضاً لقضاء الله وقدره! فمن يقتل غيره أو يصدمه بالسيارة فمعذور لأنه مجبور على ذلك ولأن الله قدر عليه ذلك، ومن يرتكب الفواحش لا عتب عليه لأنه مجبور ومقدر عليه، وهكذا يصبح التدين وسيلة للفساد والإجرام وعند ذلك تتساوى الطاعات والمعاصي، وكما يقول محمود الوراق:

إذا ما أتى فاسق زلة على العمد منه يقول قدر
إذا كان هذا على طاعة وهذا على الكفر كل جبر
فمن قد أطاع كمن قد عصى- فما للعذاب بذي يستمر
وإن كان ربي له خالق فمن قد أطاع كمن قد كفر

ومن آثار القول بالقدر حال الأمة العربية والإسلامية المهين ووضعهم في الدرك الأسفل من التخلف والجهل نتيجة

لرفضهم لما يتعارض مع تصورهم عن القدر فيحرمون
مكافحة الأمراض تعلقاً على القدر، والتقدم العلمي باختراع
ما يخدم البشر تعلقاً على القدر، والتساهل في القوانين الكونية
تعلقاً على القدر، وهكذا.

أثر القول بأن الثواب والعقاب ليسا بجزاء على الأعمال:
من نتائج انكار التقييح العقلي القول بأن الله تعالى يعذب
من لا ذنب له بل من له ثواب كالأنبياء وغيرهم، ويشيب من لا
طاعة له بل من له عقاب كالكفرة وغيرهم؛ لأنه مالك فله أن
يفعل في ممالكه ما أراد ولا يقبح منه إذ ليس بمأمور ولا منهي،
وهذا لا شك ولا ريب له أثر بالغ في السلوك العملي حيث لا
يأمن من يعمل الطاعات أن يعاقب، ولا يقطع بالعقاب من
يعمل المعاصي، فالسعادة والشقاء عندئذ متعلقة بالله تعالى لا
بتتائج أفعال العباد قال أحدهم «الثواب والعقاب ليسا لأحد
بالأعمال .. لأن السعادة والشقاوة ليستا معللتين عندنا بل الله

تعالى خلق من شاء سعيداً ومن شاء شقيماً»^(١)، والنتيجة لذلك التساهل في المعاصي لأن الأمر مقطوع به سلفاً ولا دخل للطاعات في السعادة، بل وصل الأمر إلى الافتراء على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى يشجع الناس على المعاصي تديناً فقالوا أنه قال: ((لا يدخل أحدكم الجنة عمله، ولا ينجيه عمله من النار))^(٢)، ولأن من اخترع هذا الخبر بعيد عن كتاب الله تعالى الذي يقول: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، و﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]، ومن يتأمل سلوك المسلمين اليوم - خاصة المتدينين - يجد أثر ذلك.

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٢١٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج ٢٣ ص ٣٩٦.

أثر القول بأن الله تعالى يريد الظلم ويرضى بالكفر ويحب
الفساد:

القول بذلك إنما هو نتيجة لزيغ القلب باتباع المتشابه من
القرآن وتعطيل العقل مع أمر الله تعالى برد المتشابه إلى المحكم
حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ
هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، ولا شك
أن القول بذلك فتنة، فكيف يأمر بالعدل ويريد الظلم! ويأمر
بالإيمان ويريد الكفر! حتى قال أحدهم: «الله تعالى يريد لجميع
الكائنات خيرها وشرها ومنها الإيمان والكفر فهو سبحانه
وتعالى يريد لإيمان المؤمن ومريد لكفر الكافر»^(١)، كيف
سيكون سلوك من يعتقد بذلك ما زال وقد أراد الله حدوث
أفعاله لا سيما قبيحها فمن المؤكد أنه لن يسعى للانضباط
بالقانون الإلهي بدعوى أن كل حسن وقبيح مراد لله تعالى وإلا

(١) شرح النووي على مسلم ج ١٧ ص ١٤٧.

لم حدث، وإذا كان مراداً الله تعالى فهو محب له؛ لأنه لا يريد إلا ما يحب وقد قيل: «الله يُحِبُّ الكفر، والفسوق، والعصيان، ويرضاه»^(١)، وعند ذلك تتساوى الإرادة والمحبة والرضى بالأمر وعندها يتعللوا بفعل كل قبيح بأنه أمراً^(٢) لله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وبحجة أن «ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الإيمان من المؤمن وعلى هذا التقرير إرادة الله تعالى غالبية وإرادة العبد مغلوبة»^(٣)، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فعند ذلك تسقط المسؤولية عن العبد لإرادته مغلوبة وتحمل جميع جرائمه على

(١) النبوات لابن تيمية ج ١ ص ٢٨٧.

(٢) قال أحدهم بأن العدوان والحصار على اليمن بأمر الله!.

(٣) تفسير الرازي ج ٢١ ص ٤٥٠.

الله لأنه أغلبه على فعلها، وسلوك المسلمين اليوم لدليل على كثرة قبائحهم ونسبتها إلى الله وأثر للقول بذلك.

المطلب الرابع: الجهل بالوعيد وتأثيره:

الوعيد هو الإخبار عن عقوبة عند المخالفة في المستقبل من المخبر إلى المخبر، فمن توعدده الله تعالى بالخلود في النار عند ارتكابه جريمة فإنه صائراً إلى النار لا محالة إن لم يتب منها قبل الموت، وهذا ما يؤكد القرآن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣]، ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فلا إخلاف في الوعيد المقرر ولا إسقاط له ولا خروج منه؛ لأن ذلك يؤثر جداً في السلوك العملي وأكد الله تعالى على ذلك في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ

الْمِيعَادِ» [آل عمران: ٩]، ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ
لِّلْعَيْدِ» [ق: ٢٩]، والإخلال بهذا الأصل يكون من: القول
بإخلاف الوعيد، والشفاعة للمجرمين، والخروج من النار،
وتفصيل ذلك كما يلي:

أثر القول بإخلاف الله تعالى للوعيد:

القول بأن «إخلاف الوعيد لا يذم بل يمدح، والله تعالى
يجوز عليه إخلاف الوعيد»^(١)، وأن «إخلاف الوعيد ليس
بكذب وإن العرب لا تعد عارا أو شنارا»^(٢)، هذا نتيجة
للتصور المادي أو الإنساني لله تعالى فيجرون عليه تعاملاتهم
بحسنها وقيحها كأنه واحد منهم! والعرب أكثر الشعوب
تخلفاً وعدم انقياداً للقانون فكيف يمثلون فعل الله بفعلهم،
يقول ابن خلدون عن العرب: «أنهم أمة وحشية باستحكام
عوائد التّوحّش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج ١ ص ٣٩٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٢ ص ٤٨٢.

عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له»^(١).

كيف لمن يعتقد بـ"بجواز تعطيل تطبيق القانون" "إخلاف الله وعيده" الانضباط به! ألا ترى أن لولا الصرامة في تطبيق القانون بالدول المعاصرة - لاسيما المتقدمة - لما انضبط الناس ولشاعت الفوضى وكثرت الجرائم وانهارت الدول، والعجيب أن المسلمين من العرب يمدحون انضباط الغرب في القانون وعدم اخلافهم في تطبيقه لوقوع عدم الانضباط والإخلاف في الدول العربية ومن ثم يضيفون ما يذمونه فيهم إلى الله تعالى!

قيل: «وإذا جاز ذلك فقد بطل الوعيد ووقع الإخلاف والفساد، ولو جاز أن يقع في الوعيد الإخلاف لجاز أن يقع في

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٨٧.

الوعد الإخلاف ومن قال بذلك فقد خرج من الدين وجاهر بتكذيب رب العالمين، ولو أنال أعداءه ثوابه ما عرف أوليائه نعمته التي خصهم بها والكرامة التي أنالهم إياها على طاعتهم له؛ إذ قد نال أعداءه مثل ما لهم وكانت حالهم في النعمة كحالهم به»^(١)، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧] ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة، فما تكذبيهم لصدق الوعيد إلا نتيجة لتكذبيهم بآيات صدقه.

أثر القول بالشفاعة للمجرمين:

المراد بالشفاعة المتعلق بالجهل بالله تعالى وهو القول بأن هناك مخلوق يستطيع تغيير حكم الله في معاقبة مخلوق مستحق للعقاب، وهذا القول تسرب إلى الإسلام من الأديان السابقة

(١) الشرح والبيان للإمام المرتضى محمد خ.

والمحرفة مع صراحة نصوص القرآن الكريم في نفي أي سلطة
تعلو على سلطة الله وأنه ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]،
والقول بالشفاعة على هذا النحو فيه من الإساءة لله تعالى إذ
جعل غير الله أرحم منه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]،
وأعلى سلطان منه مع قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، مع التكذيب
لآيات القرآن ﴿قُلِ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، ﴿مَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وكم لهذا القول من أثر سيء في السلوك العملي بل عزز
بأخبار مغرية على ارتكاب المعاصي حيث أن الشفاعة منحصرة
للمجرمين فقط كما رووا كذباً عن النبي صلى الله عليه وآله
وسلم أنه قال: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي!))^(١)، وما
حملهم على القول بذلك إلا لتصويرهم بأن المعبود مثلهم شكلاً
وصفاتاً يقبل الوساطات في إسقاط العقوبات المقررة منه

(١) صحيح ابن حبان ج ١٤ ص ٣٨٦، بحار الأنوار ج ٨ ص ٣٠.

سابقاً، والعجيب أن من يؤمن بذلك يستقبح شيوع هذه العادة القبيح في البلدان العربية وهي الشفاعة في إسقاط الأحكام وتولي الوظائف واستحقاقها، ويمجد البلدان التي تخلو من هذه العادة ويسري فيها القانون على الجميع، فبذلك يصبح متفلاً من القانون الإلهي وغير منضبطاً به على أمل حصوله على الشفاعة يوم القيامة وسقوط جميع الذنوب والعقوبات، بل الأعجب ترويحهم بأن الشفاعة لمن بلغ من الإجرام متناه حيث قالوا: «وإنما شفاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره»^(١)، وهذه دعوة صريحة للخروج عن القانون الإلهي بل والمبالغة بالخروج عنه.

أثر القول بالخروج من النار:

القول بتوقيت العقوبة يسهل أمرها حيث تصبح أيام قلائل ومن ثم الخروج منها، وبالتالي يدعو لارتكاب المعاصي

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٥٤٥.

وعدم التقيد بأوامر الله ونواهيه اغتراراً بذلك، كما أنه يدعو إلى
 الإعراض عن كتاب الله تعالى كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
 يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنُ
 تَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وهذا القول مأخوذ من اليهود وقد
 نبه الله تعالى في كتابه عن قولهم وبطلانه ﴿وَقَالُوا لَنُ تَمَسَّنَا النَّارَ
 إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنُ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ
 أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
 وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، إلا أن نصوص القرآن لم تعد تؤثر
 فيمن يقول بذلك لاعتقاده المسبق بالخروج من النار من خلال
 تقليده لغير الله في ذلك، وللتساهل في ارتكاب الجرائم وعدم
 الانضباط بالقانون الإلهي، وروج القول بذلك حتى صار
 الإسلام كدين غير رادع للمعاصي ولا أمر بالطاعات بل في

كثير من الأحيان سبب في كثير من الجرائم لأن في النتيجة النهائية عذاب محدود وأحياناً لا عذاب أصلاً بوجود الشفاعة وبعدها الخروج من العذاب، ويلاحظ التقيد في سلوك الأفراد تجاه عقوبات القوانين الوضعية في مختلف البلدان فكل ما كانت العقوبة أشد كان الإقدام عليها أبعد كالسجن المؤبد أو الإعدام، بخلاف لو كانت العقوبة السجن لفترة قصيرة أو الغرامة المالية لتساهل الناس في الإقدام على المخالفات والجرائم؛ لأن العقوبة قصيرة، والعجيب أن من يعتقد بتوقيت عقاب الله لمن يستحق يستقبح تخفيف عقوبات الجرائم الجسيمة كالقتل ولا يرتضي أن تكون العقوبة السجن لفترة قصيرة بل يرى وجوب الإعدام أو السجن المؤبد بحجة أن تخفيف العقوبة يسهل لارتكاب الجريمة، مع ذلك يعتقد تسهيل عقوبات الله لأبشع الجرائم وتوقيتها متناسياً ما يعيبه على القوانين الوضعية.

ولأن عقول من يقول بذلك غير فاعلة وإلا لتأملوا فساد القول بالخروج من النار؛ لأن القول بذلك يلزم أنهم لو خرجوا منها إلى أين؟ هل إلى الجنة أم لا؟ والقول بغير دخولهم للجنة باطل بالإجماع، وإذا كان دخولهم إلى الجنة فهل دخولهم بثواب أم بدونه؟ وهل الثواب باستحقاق أم تفضل؟ والقول بالاستحقاق يبطل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، والقول بالتفضل فلا يجوز التفضل في الثواب، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] (١).

(١) الفائق في أصول الدين ص ٥٧٧.

المبحث الثالث

العقل وأهميته في معرفة الله تعالى

«العقل أكبر الآلات وبه تُعرف المعارف كُلُّها، وجميع المعلومات، وإنما سُمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن المنكرات»^(١)، وهو «نعمة من أتم النعم، وحجة من أبلغ الحجج، وكونه هادياً إلى طريق النجاة»^(٢)، وهو «أصلح الحجج؛ والكتاب والسنة تأكيد له، والدليل على ذلك، أن الكتاب والسنة ما عُرفاً إلا بالعقل»^(٣)، ولم يخاطب الله إلا أهل العقول وقد جاء ذكره في القرآن والتوصية به في كثير من الآيات ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وردت اثنان وعشرون مرة، و﴿تَعْقِلُونَ﴾ وردت أربعة وعشرون مرة، وآيات كثيرة ذكرت معنى العقل ولوازمه.

(١) حقائق المعرفة ص ٥٧.

(٢) مجموع السيد حميدان ص ٢٣.

(٣) حقائق المعرفة ص ٦٥.

وقد احتج الله العباد بثلاث حجج «وهي: العقل، والكتاب، والرسول. فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد، وجاء الرسول بمعرفة العبادة. والعقل أصل الحجتين الآخرتين، لا نهما عرفا به ولم يعرف بهما»^(١).

ولا يمكن معرفة الله حق معرفته «إلا بالعقل الصحيح، والقلب النضيج، قال الله سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال سبحانه: ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإذا صح مركب اللب، وثبت فهم القلب، ثم تدبر أمره جميع الخلق، وقصدوا في ذلك قصد الحق تفرع لهم من الأبواب وجودة فكرهم وإنصافهم لعقولهم ما يدلهم على معرفة خالقهم، وقدرة سيدهم ومالكهم ودلهم ذلك على أن لما يرون من خلق

(١) مجموع الإمام القاسم الرسي ج ١ ص ٦٣١.

أنفسهم واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح وغير ذلك من الأشياء خالقاً، ليس كمثله شيء، ولا يشبهه من ذلك كله شيء، ألا تسمع كيف يدل على نفسه بما أبان من قدرته في خلق سماواته وأرضه وما بث فيها كل أوان من صنعه، وينزل من السماء بقدر من رزقه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجملة: ٥]، فإذا صح للمخلوق له وطاب له بالطاعة قلبه، ثم فكر وفي أمره كله تدبر، بان له أمر خالقه، وثبت في صدره اقتدار مصوره»^(١).

ولأن معرفة الله تعالى عقلية فلا بد وأن تكون «إثبات ونفي، فالإثبات هو اليقين بالله والإقرار به، والنفي هو نفي التشبيه عنه تعالى وهو التوحيد.

(١) مجموع الإمام الهادي ص ٢٩٠-٢٩١.

وهو ينقسم على ثلاثة أوجه:

أولها: الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، حتى ينفى عنه ما يليق بالمخلوقين في كل معنى من المعاني، صغيرها وكبيرها، وجليلها ودقيقها، حتى لا يخطر في قلبك في التشبيه خاطر شك ولا توهيم ولا ارتياب، حتى توحد الله سبحانه باعتقادك وقولك وفعلك. فإن خطرت على قلبك في التشبيه خاطرة شك، فلم تنف عن قلبك بالتوحيد خاطرها، وتُطمِّ باليقين البتّ والعلم المثبت حاضرها، فقد خرجت من التوحيد إلى الشرك، ومن اليقين إلى الشك، لأنه ليس بين التوحيد والشرك، وبين اليقين والشك، منزلة ثالثة. فمن خرج من التوحيد إلى الشرك مخرجه، ومن فارق اليقين ففي الشك موقعه.

والوجه الثاني: فهو الفرق بين الصفتين، حتى لا تصف القديم بصفة من صفات المحدثين.

والوجه الثالث: فهو الفرق بين الفعلين، حتى لا يُشَبَّه فعل القديم بفعل المخلوقين، فمن شَبَّه بين الصفتين، ومثَّل بين الفعلين، فقد جمع بين الذاتين وخرج إلى الشك والشرك بالله، وبرئ من التوحيد والإيمان بالله، وصار حكمه في ذلك حكم من أشرك، اعتقد ذلك وامترى فشك. فهذه جملة التوحيد المضيقَة التي لا يُعذر - من اعتقادها، والنظر في معرفتها، عند كمال الحجة - أحد من العبيد، فمن مُكِّن بعد بلوغه وكمال عقله، وقتاً يكمل فيه معرفة العدل ويمكنه، فتعدى إلى الوقت الثاني وهو جاهل بهذه الجملة، فقد خرج من حد النجاة، ووقع في بحور الهلكات، حتى يستأنف التوبة، ويقلع عن الجهل والغفلة، بالنظر في معرفة هذه الجملة التي لمعرفتها خلق الله الخلق، وهي ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] (١).

(١) مجموع الإمام القاسم الرسي ج ١ ص ٦٣٢-٦٣٣.

الخاتمة

[لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]:

«وحكم العقل في كل ما تسمع تكن بذلك الفطن الورع، واعلم أن العقل حجة الله عليك، ووديعته لديك، واجعله عمادك، وصحح به اعتقادك، وتأمل قول الله تعالى في آيات كثيرة لعلهم يعقلون وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإنه يعني لمن كان له عقل يستعمله ولم يشهد له، وقال النبي صلى الله عليه وآله: ((استرشدوا العقل ترشدوا ولا تعصوه تندموا))، وقال عليه السلام: ((قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له))، وقال عليه السلام: ((إنما يدرك الخير كله بالعقل ولا دين لمن لا عقل له))، فعليك .. في دينك كله باستعمال العقل، وتجنب الجهل، والحذر كل الحذر من اتباع التقليد، والأخذ بقول الجاهل العنيد؛ فتلك طريق الجاهلين وتعللات الكافرين بها حكاه رب العالمين في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

مُهِتَدُونَ﴿[الزخرف: ٢٢]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: ((من أخذ دينه عن التفكير في آلاء الله تعالى، وعن التدبر لكتابه، وعن التفهم لسنتي زالت الرواسي ولم يزل، ومن أخذ دينه عن أفواه الرجال وقلدهم فيه ذهب به الرجال عن يمين إلى شمال، وكان من دين الله تعالى على أعظم زوال))﴾^(١).

«فإن اختيار مذهب على غيره قبل المعرفة والبيان ضلال لصاحبه عن قصد السبيل ومتابعة الهوى بغير دليل ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، ولا يحصل من ذلك تقليد من أحبه المرء وأنس به؛ لأن المقلد لا يأمن خطأ من قلده فيكون بتقليده له متعلقاً بحبل غرور، ولأنه ليس بعض المقلدين أولى من بعض فلو ساغ تقليد من أثبت شيئاً، لساغ تقليد من نفاه؛ لأن المقلد لا يفصل بينهما، وكما يجوز أن يكون أحوال من قلده جميلة عنده فكذلك يجوز أن تكون أحوال من خالفه جميلة عند

(١) الجواب على الفقيه الشافعي ص ١٥.

غيره، وفي ذلك يتساوى النفي والإثبات وذلك باطل، فلذلك
لزم كل عاقل أن لا يتقدم في أمر من الأمور قاطعاً عليه بنفي أو
إثبات إلا بعد معرفته به واتقن له قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]» (١).

(١) الرسالة المناصفة للمتكلمين والفلاسفة (قيد التحقيق).

الفهرس

المقدمة	١
المبحث الأول: تعريف الجهل وأقسامه	٥
قبح الجهل المركب	٦
المبحث الثاني: الجهل بالله وأثره على السلوك العملي	٨
أسباب الجهل بالله	٨
الجهل بالتوحيد وتأثيره	٩
الجهل بالعدل وتأثيره	١٨
الجهل بالوعيد وتأثيره	٢٨
المبحث الثالث: العقل وأهميته في معرفة الله تعالى	٣٧
الخاتمة	٤٢
الفهرس	٤٥